بقلم : محمد الجيار

تذكرت كم كان كل شيء يدعو الى السخرية ٠٠ كما كان يدعو الى الاعجاب وكانت ساعة الحائط تشير بكف حزينة الى منتصف الليل ، والحجرة الكبيرة ليس بها أحد سواى ٠٠ وفى مقعدى الوثير كنت أنتظر الطبيب ، وذراعى اليسرى التى كسرت منذ ساعة يضج بها ألم كبير وبدأت أستعيد ماحدث ٠

كانت ليلة رأس السنة ، والمدينة تلمع من بعيد بنور فرح غامض.. وهواء ديسمبر يسرى محملا بأنفاس أزهار ولدت مع العام الجديد ٠٠ والناس يطل من عيونهم انتظار غريب الى حياة جديدة ٠

وتهيأت ـ كعادتى كل عام ـ للترحيب بالعام الجديد ، الا أن طقوس الاحتفاء هذه المرة تختلف عن كل سنة ماضية ٠٠ لأننى سأستقبل العام الجديد فى عيون امرأة ليست كالنساء ٠٠ فيها آخر أضواء بابل ٠٠ أنثى متجددة السحر لايمل القمر من التحديق فى عينيها ، ذات جدائل ذهبية تتهدل على كتفيها فى صمت متمرد ثائر ، وشاقنى ان أفتح زجاجة عطر ثمينة أعددتها لفاتنتى هدية فى عيد رأس السنة ٠٠ عطر (التابو) ، ولكنى اجفلت عندما دخلت زوجتى (أمينة) الى الحجرة ، فتحاشيت عينيها ، الا أنهما حاصرتا وجهى ، فرأيت فيهما تلك الأرقام الثرثارة عن ايجار المنزل ، وتكاليف المعيشة ، واستهلاك الكهرباء ٠٠ وأنا رجل موظف ، ولا أحب أن أكون موظفا صباحا ٠٠ ومساء !

ولكن زوجتى كانت هادئة دائما ، وتكسرت نظراتها على عينى فى عتاب

طويل ، وجاءنى صوتها العاتى الخالى من دعوات الرغبة ..

ـ على فين .. وايه الـــوجاهة دى كلها .. ؟

ـ ولا وجاهة ولا حاجة يا أمينة .. دى حتة بدلة جديدة .

ـ طيب يا سيدى مبروك.. ومبروك عليك السنة الجديدة كمان .

ـ الله يبارك فيكى يا أمينـة .. عن اذنك .. أنا عندى ميعاد مع أصحابى. وابتسمت أمينةبحزن مسالم ، وأطرقت الى الارض ، وارتفعت نظراتها البطيئة تتسلقنى ، كما تتسلق لبلابة جـــدار سجن طويل ، وتطلعت الى عينى زوجتى .. كانت تطلب شيئا ..كانت أهدابها كانامل طفل أخرس يريد ان يقول شيئا .. شيئا يؤلمه .

ـ عاوزه حاجة يا أمينة .

ـ فين هدية رأس السنة ؟

تلعثمت أفكارى ـ هل رأت علبـــة العطر الغالية التى أعددتها لسوزى ؟

ولكن أمينة قطعت على حيرتى بضحكة بريئة وقالت فى بساطة الطفل :

ـ هدية السنة الجديدة .. عندى هى شيء بدون غرامه ..واحتوتنى بذراعيها احتوتنى بكل مافى ـ فطبعت قبلةباردة على شفتيها ، كتوقيع الموظفين المنسيين على دفاتر الحضور والانصراف فى وزارة الأوقاف ! .

***

كانت المدينة تموج بالأضواء الفرحة والوجوه الباسمة ، والاشياء الجديدة ، وأنا قابع داخل سيارة (تاكسى) تنطلق بى الى سوزى ، السماء من بعيد تتشح ببعض السحب ، وأضـــواء المصابيح تتراقص على أمواج النيل ، وكان سائق السيارة طويل القامة ، مائل الرأس الى الامام ، كنت أحب كل شيء فى هـذه الامسية ، كنت راضيا عن البشر جميعا .. وأدار السائق مفتـــاح المذياع ، فانبعث صوت أم كلثوم حلو كالأمنية، ورحت أردد معها ذلك المقطع « كان لك معايا .. أجمل حكاية .. »

وامتزج النغم ، بعطر التـــابو الذى يفوح من ضمير العالم كله فى هذا المساء باشعة المصـــابيح الملونة فى مهرجان المدينة الساهرة .. فاســـندت رأسى وأشعلت سيجارة ، ورحت أنفث دخانها فى هدوء وسلام كاملين .

ماذا حدث ؟

العالم يتحطم .. الدنيـا انفجرت ، العربة انقلبت بى بعد اصطدامها بأحـد أعمدة كوبرى أبى العلاء .. آلام هائلة تنشب أظافرها فى كل جســـمى .. زجاجة عطر (التابو) تحطمت وســال العطر مع الدم الذى انبثق من صدرى كل هذا حدث فجأة .. وأنا فى قمـــة سعادتى ، وألقانى الليل بقسوة الى قاع العذاب الاسود ، وأحسست أن ذراعى اليسرى مقطوعة تماما ، ويسيل منهـــا الدم ، أردت الحركة .. فلم أستطع ، ونفذ الى صدرى دخان أســـود كثيف كرائحة الموت ، رائحة كل الأشـــياء العزيزة التى أحببتها فى طفـــولتى ، وتحولت فى عيد رأس السنة الى رماد .

السيارة توشـك أن تنفجر ، وأنا

عاجز عن الحركة ، ولكن الشيء الذى لن انساه مدى الحياة ،هوان مذياع السيارة المحطمة لم يصب بعطل ، كان الغناء ينبعث منه واضحا جليا فوق آلامى ، وآه من صوت أم كلثوم وهو يتساقط على رأسى ·· ودمى المنتثر فى العربة · (كان لك معايا ··· أجمل حكاية ··· فى العمر ···) !! !!

وامتدت اذرع الناس وانقذتنى من قبضة الموت ، وفى رعب ذاهل رحت أبحث عن ذراعى ، حسبتها وقعت منى، ولكننى لمست شيئا مدلى من كتفى وينتهى بأصابع مضمومة ، وساعة فى المعصم لا زالت تدق · !

لا أعرف لماذا شاهدت فى هذه اللحظات العصيبة وجه زوجتى أمينة يطل من وراء ضبابه، وجه زوجتى الطيبة الصابرة ··· بعينيها الغافرتين وابتسامتها البطولية ، وجه زوجتى المتعب الشاحب دائما ···

***

وفى بهو الاستقبال · باحدى المستشفيات ، تكومت بآلامى على أحد المقاعد ونظرت بحزن الى ساعة معلقة فى الحائط ، فرأيتها تشير الى الحادية عشر مساء ، موعدى مع سوزى ، وهبت نسمة باردة من نسمات الليل حركت بقايا عطر الزجاجة التى تحطمت فى السيارة ، ورأيت نفسى فى مرآة معلقة أمامى ، مرآة صدئة مشروخة ، كنت أكثر من شيء ممزق،وقد لايرى الانسان وجوه الناس رؤية واضحة فى معظم الاحيان ، وفى لحظة معينة يستكشف الوجه الحقيقى للانسان ·· ولقد رأيت وجوه الناس فى هذه الليلة تتسم بالأنانية والقسوة والكذب ·· وأطل على فجأة وأنا منكمش فى مقعدى وجه الباشتمرجى ، عيناه مشرطان من مشارط الاطباء القديمة الصدئة ، وكل شيء فيه يسرق منك شيئا ، فيه عطف زائف يؤلمك ، رأيته يفرك كفا بأخرى ، فصافحته بابتسامة دامية ، همس فى أذنى : أنا معاك ·· ما تخافشى ·· فهمست اليه : بس أنا دراعى مكسورة ومش قادر أطلع فلوس ·· نظر الى بعينين ضيقتين تكذبان بلا سبب ··على الدوام ·· وقال : يا أخى ايدك اليمين سليمة ·· هات الجوده ·· ربنا يشفيك ·

وأدخلت يدى اليمنى الى جيب سترتى الداخلية ، بعد أن تركت النصف المكسورة من ذراعى اليسرى ، وجاهدت أن أعثر على حافظة النقود ·· وفزعت·· لم يكن معى شيء ·· لقد فقدت الحافظة أثناء الحادث وتطلعت مرتبكا الى الباشتمرجى وخرج صوتى كالفحيح·· الفلوس راحت فابتسم ساخرا وقال : كده ·· يعنى عيان من غير فلوس ··

مش عـاوزين . وانتزعنى من شرودى الذاهل صوت هذا الرجل الذى يبيـــع الابتسامة ..والكلمةالطيبة ، وتصورت عينيـــه تنفرزان فى لحمى .. تكسران ذراعى من جديد .

وجاء طبيب المستشفى ، وطلب من الباشتمرجى أن يخلع عنى سترتى ليرى ذراعى المكسورة ، وبدا الرجل ينزعهـا بغلظة وبلا تمهل ورحت أتوجع طالبـا اليه عدم ايلامى ، فراح يقول :

ـ ايه يعنى حتة كسر فى الدراع .. ياراجل استحمل .

وبدأت أصـــابع الطبيب تتحسس العظام المكسورة ، والباشتمرجى ينظر الى نظرات قاسية متشفية ، وهواء العام الجديد يلفح جرحى ، ثم رأيت الطبيب يشعل سيجارة ويقول : كسر مضاعف .. عمرى ماشفت كسر زى ده .. بس للاسف مفيش جهاز أشـــعة دلوقت ، وما فيش حل غير انك تبات هنـــا ، وندبك حقنة مسكنة ، كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر مساء .. ورجـوت الطبيب أن يخلى سبيلى ، آملا أن اهتدى الى طبيب عظام خاص .

كنت وحدى .. والألم .. والليل .. وليلة رأس السنةبأسرارها الغامضة ولكن المدينة تحولت الى غول متزين ، كل شىء يتحرك بسرعة كأنه مسروق من شىء آخر ، وانطلقت بى سيارة تاكسى ومن زجاج الســيارة كانت الأضـواء الملونة الراقصة ..والاعلانات الصارخة والنساء الجميلات ذوات الثياب الضيقة كل شىء كما هو .. لم يتغير . الا أننى مع آلامى الشديدة كنت أبتسم ساخرا من كل شىء .

وكان من العسير الاهتداء الى طبيب خاص فى ليلة رأس السنة ، فالألم فى مثل هذه الليالى ضيف ثقيل ، الا أننى اهتديت الى عيادة لطبيب عظام بعـــد بحث طويل شاق ، وارتميت على أول مقعد منتظرا طبيبى الوحيدفىهذا الليل الكبير .

ـ الدكتور جاى بعد شويه .

كان صوتا مريحا صافيا نطقبه رجل فى حوالى الخمسين من عمره ، أشيب الرأس ، غائر الخدين ، فى جبهته أثر لجرح قديم .

وكان ذراعى المكسور قد وصل بى الى قمة الألم ، ولم أعد أطيق شيئا .. الا أن صورة هذا الرجل الوديع الباسم الطيب آنستنى وربتت عـــلى جرحى ، ورأيته يشعل لى سيجارة ويقول :

ـ شده وتزول .. معلهشى .

فقلت بصوت ممزق : بس اشـمعنا دا يحصل فى رأس الســنة ؟ فابتسم الرجل الباسم ونفث دخان ســيجارته وقال : ما هو لازم كده علشان تقـدر قيمة الحركة .. والصحة ، والـــكلام العادى بين الأصحاب ..

فقلت : بس أنا خايف دراعى ينقطع وكان نفسى تكون تضـــحيتى بذراعى لسبب كبير ، حرب الجزاير مثلا .. أما ان دراعى يروح كده فى حادث عبيطزى ده .. وأنا رايح أسهر مع أصـــدقائى

وهنا خفق قلبى ، وتذكرت سوزى ، فرجوت هذا الرجل الطيب أن يطلب لى رقم تليفونها ، وقمت استند على ذراعه حتى جلست بجوار التليفون والعرق يتفصد بهجبينى ، وجاءنى صوت سوزى يتمطى سكران .. وكانت هناك موسيقى راقصة صاخبة وأصوات رجال يضحكون .. وبصوت متقطع مغموس بالدم قلت :

ـ سوزى .. أنا متأسف .. مقدرتش آجى .. اصل حصل لى حادث .

ـ حادث ايه ؟ انت بتتكلم منين دلوقت .. ياخسارة الليلة ضاعت .

ـ ضاعت ياسوزى .. زى ليالى كتير .. بس مش أنا اللى ضيعتها . تقدرى تجيلى دلوقت .. فى عيادة الدكتور .

ـ عيادة الدكتور .. مش ممكن .. أنا آسفة جدا .. عندى بارتى وبنحتفل بعيد رأس السنة .. شد حيلك انت .

وللمرة الثانية أسمع صوت تكسر زجاجة العطر التى كنت سأقدمها هدية اليها ... ما أرخص مثل هذه العلاقات .. لن تعرف الحب الحقيقى الا فى ساعات الألم ..

وصحوت على صوت الرجل ـ صديقى ـ يقول : انت حضرتك مش مجوز ؟

فأجبته : مجوز من زمان ... فابتسم قائلا : يظهر ان فيه حاجة تاعباك فى الدنيا دى .. طيب اسمع راح أحكى لك حكاية حتنسيك آلامك

ـ من عشرين سنة ، وبعد ما انتهت حفلة الغنا والرقص بتاعة ليلة دخلتى ، خدت فهيمة مراتى ، وخرجنا نلف البلد فى عربية متزينة بالورد ، كانت فهيمة حلوة ومزهزهه زى عود النعناع الأخضر .. وعلى طول سمعت الدنيا اتهدت على راسى .. العربية اتخبطت ، وفهيمة الحلوة الصغيرة اتكسرت رجلها اليمين .. تعرف ان رجلها انقطعت بعد كده ... ومع كده عاش حبنا طول العمر .

وبكى الرجل الطيب لأول مرة ..

فقمت أحمل ذراعى المكسورة . ، ورحت أواسيه ، وقد نسيت تماما آلام ذراعى .. شعرت بتفاهتها أمام تضحية هذا الرجل ، وبهرنى حبه لزوجته ، وثقته بالحياة ..

وأخيرا .. حضر الطبيب ،واستلقيت على منضدة العمليات ووجه الرجل الطيب الباسم الصبور يملأنى بالشجاعة والقوة ، وتعلقت بضوء المصباح .. تشبثت عيناى بحبل الضوء ، وبدأ الخدر يتسلل هادئا الى كيانى ، والأصوات تغيب ، والراحة تشمل جسدى المتعب المعذب ، وغصت فى قرار مظلم سحيق ،

ومر زمن لا أعرف مداه ، ثم انقشعت ظلمة الغيب الذى طوانى فى أحشائه، وبدأت عينـاى تتفتحان على الأشـياء المحيطة بى ، واستنبت من خلال الضباب الكثيف وجها رحيما مبللا بالدموع ·· أول وجه يطالعنى بعد عودتى ، راية السلام البيضاء التى ترفعها الحياة لى ···

كانت ملامح هذا الوجه معروفة لى تماما ، الا اننى أراها الآن أكثر وضوحا وحنوا وصدقا ·· كان يبدو جديدا باهرا يطل على من أعلى الهاوية ، وشعرت بعينين ترفعانى على محفة من النور الشفيف ، وتصعدان بى بطيئا ·· بطيئا نحو القمة المشمسة الدافئة.

وابتسمت للوجه الحنون الصادق ·· وهمست : أمينة ·· مراتى ·· فضمتنى بذراعيها ، وطبعت على فمى المثلوج قبلة لم اذق احلى منها فى حياتى كلها ·

كنت أستشعر طمأنينة بالغة ، وصفحا كاملا عن قسوة الحياة ، وحبا جديدا للناس جميعا ، حتى لهذا السائق الذى تسبب بحماقته فى كسر ذراعى ـ دون سبب ··

***

وحدنا ·· كنا نعود ، ذراعها هى ذراعى ، يدها اليسرى متشابكة الأصابع مع يدى اليمنى ، وكانت هناك غمامة تمر سريعا لتفسح الطريق لميلاد القمر وذراعى المكسورة داخل اطار حديدى من جبيرة ممتدة لا تسمح لها باية حركة ، وبدأنا نصعد درج المنزل فى خطوات متناغمة متآلفة ، ولأول مرة استقبلنا المنزل بكل دفئه وسلامه ، واحتوانى الفراش كصدر أمى ، وأطلت على عينا زوجتى بكل حنان الحب وروعته وصدقه وشعرت وأنا فى سجن هذه الجبيرة بنوع غريب من الحرية والانطلاق النفسى ·· مع زوجتى التى لم أر وجهها قبل الآن همست أمينة : ايه رأيك ياحبيبى ··· نحتفل بعيد رأس السنة هنا فى البيت ··· أنا راح أدور الراديو ونسمع موسيقى العالم السهران فى الليلة دى ··

رددت عليها : ازاى يا أمينة عرفت بالحادث ·· ومن اتصل بك · قالت : اتصل بى شخص اسمه (أبو سالم)· وقال انه باشتمرجى الدكتور ، وانك تحت البنج وأعطانى العنوان فحضرت..

***

وبعيدا عن عالم الكذب حيث يسمع الانسان صوت نفسه ، ومع آلام الذراع المكسورة ، كانت الحياة تبدأ كلماتها الحارة المخلصة فى حوار حبيب مع عينى أمينة زوجتى وحبيبتى ·